L'héritage narratif de l'époque omeyyade

Adel Frejat

Édition électronique

URL : <http://journals.openedition.org/beo/136>

DOI : 10.4000/beo.136

ISBN : 978-2-35159-260-8

ISSN : 2077-4079

Éditeur

Presses de l'Institut français du Proche-Orient

Édition imprimée

Date de publication : 1 janvier 2008

Pagination : 185-196

ISBN : 978-2-35159-038-4

ISSN : 0253-1623

Référence électronique

Adel Frejat, « L'héritage narratif de l'époque omeyyade », *Bulletin d'études orientales* [En ligne], Tome LVII | Janvier 2008, mis en ligne le 18 novembre 2009, consulté le 19 avril 2019. URL : <http://journals.openedition.org/beo/136> ; DOI : 10.4000/beo.136

المصادر والمراجع بحسب تسلسل ورودها في البحث

- ١- القيسي، نوري حمودي: أولية القص في الأدب العربي، بحث في مجلة كلية الآداب ع ٣٨، بغداد ١٩٩٠.
- ٢- القاضي، محمد: الخبر في الأدب العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٨.
- ٣- الحصري: زهر الآداب، تخ زكي مبارك، مصورة دار الجيل، بيروت، ط ٤ / ١٩٧٢.
- ٤- شمس الدين، إبراهيم: قصص العرب في العصرين الجاهلي والإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٢.
- ٥- المبرد: الكامل في اللغة والأدب، تخ محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٩٩٧.
- ٦- عباس، إحسان: ملامح يونانية في الأدب العربي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٧.
- ٧- الزركلي: خير الدين: الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين ط ٥ / ١٩٨٠.
- ٨- سزكين، فؤاد: تاريخ التراث العربي، ترجمة محمود فهمي حجازي، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤١١ / ١٩٩١.
- ٩- المقدسي، أبو زيد البلخي: البدء والتاريخ، ط طهران، مكتبة الثقافة الدينية، دون تاريخ.
- ١٠- عواد، كوركيس: أقدم المخطوطات العربية في مكتبات العالم، بغداد ١٩٨٢.
- ١١- المفضل بن سلمة: الفاخر في الأمثال، تخ عبد العليم الطحاوي، القاهرة ١٩٦٠.
- ١٢- الطبري: تاريخ الطبري، تخ محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٠.
- ١٣- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تخ إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي ١٩٩٣.
- ١٤- الجاحظ: البيان والتبيين، تخ عبد السلام هارون، مصورة بيروت، دار الجيل ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠.
- ١٥- إبراهيم، عبدالله: السردية العربية، بيروت المركز الثقافي العربي ١٩٩٢.
- ١٦- ابن الجوزي: كتاب القصص والمذكرين، تخ أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية ١٩٨٦.
- ١٧- الأصفهاني، أبو نعيم أحمد بن عبدالله: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، القاهرة، مطبعة السعادة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢.
- ١٨- ابن النديم، محمد بن إسحق: الفهرست، تخ رضا تجدد، بيروت ١٩٧١.
- ١٩- متز، آدم: الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد الهادي أبو ريذة، بيروت.
- ٢٠- المقدسي، علي بن بلبان: المقاصد السنية في الأحاديث الإلهية، تخ محمد العيد الخطراوي وصحبه.
- ٢١- الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني، مصورة دار الكتب المصرية.
- ٢٢- الميداني: مجمع الأمثال، تخ محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الفكر ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢.
- ٢٣- الغدامي، عبدالله: جماليات الكذب، بحث في مجلة فصول، القاهرة مج ١١ ع ١ / ١٩٩٢.
- ٢٤- الفريجات، عادل: بحوث ورؤى في النقد الأدبي، دمشق ٢٠٠٧.
- ٢٥- الخطراوي، محمد العيد: قول في الفشار والأفاشير (تأصيل وتفصيل)، بحث في مجلة جذور ع ١٧، جدة ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤.
- ٢٦- ملطي - دوغلاس، فدوى: العناصر التراثية في الأدب العربي المعاصر - الأحلام في ثلاث قصص، بحث في مجلة فصول، القاهرة مج ٢ ع ٢ / ١٩٨٢.

والخلاف ما بين مصطلح الناقد التراثي (الجاحظ) من جهة، ومصطلح الناقد المعاصر (الخطراوي) من جهة أخرى، يظهر اختلاف المفاهيم ما بين القديم والجديد، ذلك لأن «المصطلح» هو التعبير الدقيق عن المفهوم. كما يظهر أيضا تطور مفهوم الأجناس الأدبية ما بين عصر الجاحظ وعصرنا. فما لم يكثر به في القديم، صار موضع اهتمام من نقادنا المعاصرين، وموضع اكتشاف وبحث وتمحيص ورؤية جديدة.

وفي وسعنا أن نرى في بعض تلك الأقصوصات والأفاشير التي تقوم على الكذب المحبب، وتنم على خيال خصب، مقدمات لمبدعات أخرى مشابهة لها ظهرت في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، مثل قصة رأس الغول، وكتاب كلندجة، وحصن الدولاب، وكتاب ضياء الأنوار، والحصون السبعة وصاحبها هضام بن الحجاب وحروب الإمام علي معه، وصاحبها جميعا هو: أحمد بن عبدالله البكري (نحو ٢٥٠ هـ) الذي نعت بالكذاب الدجال، ووصفه الذهبي بـ «واضع القصص التي لم تكن قط» (الأعلام، للزركلي ١/ ١٥٥). الشأن الذي يشي بوجود حلقات متصلات من التأليف ذي المنطق التخيلي، وجد في الجاهلية وتطور في زمن الراشدين والأمويين، وفي زمن العباسيين، وانتقل حتى إلى عصور الأمويين في الأندلس. ويذكر الزركلي في «الأعلام» أن كتاب رأس الغول قد وصل إلينا وتمت طباعته.

والحقيقة أن بعض قصص الأحلام التراثية قد أثرت في أدبنا القصصي المعاصر. وقد درست الباحثة (فدوى ملطي - دوجلاس) أثر قصص الأحلام في ثلاث قصص لثلاثة كتاب عرب معاصرين في بحث لها عنوانته بـ «العناصر التراثية في الأدب العربي المعاصر». والقصص التي وقفت عندها هي: قصة دومة ود حامد للطبيب صالح، وقصة زعبلاوي من مجموعة نجيب محفوظ «دنيا الله»، وقصة الرؤيا من مجموعة عبد السلام العجيلي «قناديل اشبيلية». فالقصص الثلاث المعاصرة والمشار إليها سابقا كلها قامت على الحلم، أو إن الحلم شكل نسيجها بشكل قوي وساطع. وهي تدور حول مسألة الصحة والمرض. وهو ما يمكن فهمه بالمعنى الحسي والمعنى الروحي. وفي جهد تأويلي للباحثة المذكورة رأيت أن التراث الموظف عند الطبيب صالح، بوصفه ملهما، يعني أنه الفرج بعد الشدة، أو الصحة والخلاص. والتراث عند نجيب محفوظ - كما ترى الكاتبة - يمثل فرصة للراحة وهو دواء مؤقت وغير محدد لهموم الإنسان. أما عند عبد السلام العجيلي فهو مجلة للهلاك (انظر مجلة فصول، القاهرة ١٩٨٢، مج ٢، ع ٢، ص ٢٨). وتأويلات الكاتبة (ملطي دوجلاس) تقبل النقاش، دون ريب، ولكنها تدل في الوقت ذاته على اجتهاد جيد وبصيرة نافذة تمكنت من ربط الحاضر بالماضي على نحو خلاق ومثمر. وهو موقف نتوخاه وندعو إليه، حين نندرس آثارنا التاريخية والأدبية على حد سواء.

وخلاصة كل ما تقدم: أن الإرث القصصي في زمن الأمويين قد توزع في محورين اثنين هما: قصص يعني بسرد الوقائع والحقائق، وله بيئاته، وأعلامه، ومزايه، وأغراضه. وقصص آخر يعني بسرد أحداث ووقائع، نصيبها من الخيال كبير، وتعبيرها عن هواجس الإنسان وأحلامه وفير. وهو النوع الأدبي الذي أغفله النقاد القدامى، فجاء الدارسون المحدثون ليعثوه حيا، وينصفوا نماذجه، بوصفها جنسا أدبيا أهمله القدماء، رغم كونه ثمرة للمخيل الأدبي جديدة بالنقد والتحليل والتأويل.

لا فرق) للمصباح الكهربائي. أو للقنبلة المضيفة التي يبدد بها الإنسان دياجير الظلمة. وقتل الظبي بسهم الفارس الثاني يجسد حلم الإنسان في تحقيق الإصابة للهدف بدقة في الصيد والحرب معا. وهو حلم تحقق باختراع الصواريخ الحرارية التي تنطلق نحو الهدف وتلاحقه بإلحاح حتى تدمره، وإن تيامن أو تياسر أو علا أو هبط... وعليه فسهم الأعرابي الثاني هو صنو (أو حلم لا فرق) للصاروخ الحراري الذي يسقط الطائرات في الجو، مهما ناورت نحو اليمين أو اليسار أو الأعلى أو الأسفل.

وفي وسع المرء أن يرى في ضوء ما تقدم أن بذورا من بذور أدب الخيال العلمي قد وجدت في التراث العربي، وخاصة إذا تذكرنا أن هذا الأدب يتحدث عن أحلام البشرية في تجاوز حدود الزمان والمكان، وفي ارتياد مناطق مجهولة كان الإنسان يقف عاجزا دون الولوج إليها، أو السيطرة عليها. (انظر: عادل الفريجات: بحوث ورؤى في النقد والأدب، ص ١٦-١٧).

وحظيت تكاذيب الأعراب أيضا، أو ما يسمى بالأفشورة، بدراسة أخرى جادة نهض بها الباحث محمد العيد الخطراوي، ونشرها في مجلة «جذور» السعودية (العدد ١٧ / ١٤٢٥ / ٢٠٠٤ ص ٩٣-١٣٢). وقد رأى فيها الباحث المذكور آثارا فنية هي أقرب ما تكون إلى الأساطير، وراح يصنفها في أربعة أنواع هي: ١- أفاشير وعظية ٢- أفاشير تهكمية هزلية ٣- أفاشير رؤيوية ٤- أفاشير محالية.

وقد ساق مثالا أو أكثر على كل نوع من الأنواع السابقة، فكانت قصة قبر الأخت الذي اشتعل نارا مثالا على الأفاشير الوعظية.

أما الأفاشير التهكمية فاختر لها نماذج من أقوال بهلول، وقد استمدتها من كتاب «عقلاء المجانين». ومن تلك النماذج حوارية قصيرة تقول: سئل بهلول عن رجل مات، وخلف ابنا وزوجة، ولم يخلف من المال شيئا، كيف تكون القسمة؟ فقال: للابنة الثلث، وللزوجة خراب البيت، وما بقي من الهم فللعصبة. وهذه الأفشورة ضعيفة الصلة بالخيال، ونصيبها من فن السرد ضئيل، وهي أقرب إلى الحوارية منها إلى الحكائية.

أما النوع الثالث فقد كان المثال عليه قصة حمل أم جرير، التي تقدم ذكرها من قبل. ولكن الكاتب الخطراوي لم يفسرها كما فسرناها، رغم أنه أبدى أسفه لأن تلك الأفاشير الحميمة لم تلق الاهتمام الكافي لدراستها فنيا، مع أنها حظيت بعلم تراثي خاص هو علم تعبير الرؤيا الذي ظل يراوح بين الخرافة والحقيقة. (مجلة جذور، ع ١٧، ص ١٢٦).

أما اللون الرابع، فكان أحد أمثله عليه مستمدا من كتاب البرصان والعرجان للجاحظ، وهو مما روي عن لقاء المغيرة بن الفرز ومردويه كرداني بالأهواز، قالوا عنهما: التقيا، فاختلعا ضربتين، فضرب المغيرة وسط مردويه، ومن شدة الضربة وجودة السيف، مر السيف في وسط المضروب، حتى نفذ من الجانب الآخر، والمضروب لم يشعر به، ثم قال المضروب للمغيرة: ما صنعت شيئا، قال المغيرة: فإن كنت صادقا فتحرك. فلما تحرك، تباين نصفاه، فسقط أحدهما عن يمين الفرس والآخر عن يساره... وعقب الجاحظ قائلا: فهذا من أحاديث الخرافات، وليس يحتمل هذا الضرب من الأحاديث إلا من لا علم له.

وعلق الخطراوي على قول الجاحظ بقوله: ولو أنصف إمام البيان، لسمى ما نقله أفشورة لا حديثا، ولرضي تلك المحالية فيها، لأنها من أهم ما يحقق الفشر (مجلة جذور، ع ١٧، ص ١٢٧).

جعل يقع في عنق رجل، فيخنقه، ثم يقع في عنق آخر فيخنقه، حتى خنق رجالا كثيرين، فانتبهت مرعوبة، فقصت الرؤيا على بعض المعبرين، فقال: تلدين غلاما شاعرا ذا شر وشدة وشكيمة وبلاء على الناس، فلما وضعته سمته جريرا باسم الحبل الذي رآته قد خرج منها. والجري في اللغة هو الحبل. (كتاب الإشارات في علم العبارات، لابن شاهين ص ٨٠).

والقصة التي ساقها ابن شاهين تقوم على الحلم الذي يعد ثمرة من ثمار الخيلة، سواء كان من أحلام النوم، أو من أحلام اليقظة. واني لأرى في هذه القصة /الحلم طريقة تفسر وعورة طباع جريير، وقدرته الشعرية الفائقة، وخاصة في غرض الهجاء، فقد روي في الأغاني أن جريرا كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعرا، فينبذهم وراء ظهره، ويرمي بهم واحداً واحداً، ومنهم من كان ينفحه فيرمي به، وثبت له الفرزدق وجريير. (الأغاني، ط دار الكتب ٨/٨). وهكذا تبدو القصة وكأنها نبوءة من نسج الخيال، حدثت في الماضي، ثم جاء المستقبل ليحقق ما حوته من رموز. أو لنقل، بالعكس، جاء الماضي هنا، ليفسر بعض مسائل المستقبل.

وإذا كانت القصة السابقة من دنيا الأحلام التي تحدث في المنام، فقد وصلتنا قصتان قصيرتان تنتمي إلى أحلام اليقظة، وتعدان، من زاوية من الروايات، بذرتين من بذور أدب الخيال العلمي، فقد ساق المبرد في كتابه «الكامل في اللغة والأدب» القصتين التاليتين: «حدثني سليمان بن عبد الله بن أبي العميث مولى العباس بن محمد قال: تكاذب أعرابيان، فقال أحدهما: خرجت مرة على فرس لي، فإذا أنا بظلمة شديدة، فيمّنتها حتى وصلت إليها، فإذا قطعة من الليل لم تنتبه، فما زلت أحمل عليها فرسي حتى أنبتهتها، فأنجابت. قال: فقال الآخر: لقد رميت ظبيا مرة بسهم، فعذل الظبي يمنة، فعذل السهم خلفه، فتياسر الظبي، فتياسر السهم خلفه، ثم علا الظبي، فعلا السهم خلفه، ثم انحدر، فأنحدر حتى أخذه. (الكامل، تح محمد الدالي ج ٢ ص ٧٣٣).

ويتابع المبرد، فيرد أصول هذه الخرافات إلى العجم فيقول: «وحدثني التوزي قال: سألت أبا عبيدة عن مثل هذه الأخبار، فقال: إن العجم تكذب فتقول: كان رجل ثلثه من نحاس، وثلثه من نار، وثلثه من ثلج. فتعارضها العرب بهذا وما أشبهه» (الكامل ٧٣٩/٢). ومعرفة أبي عبيدة لتلك القصص الخرافية ترجع وجودها في العصر الأموي فقد عاش أبو عبيدة شطرا من عمره زمن الأمويين، فهو مولود في السنة (١١٠ هـ) ومات في السنة (٢٠٩ هـ).

والحق أن ما قاله الأعرابيان لا يمكن أن يمر عليه الباحث الأدبي سريعا، وقد سبقنا إلى ذلك الناقد السعودي عبدالله الغدامي، فنشر بحثا في مجلة الفصول القاهرية عنوانه بـ «جماليات الكذب» (انظر فصول، القاهرة مج ١١، ع ١، ص ٢٣١-٢٣٦) درس فيه تكاذيب الأعراب من زاوية النقد المعاصر.

والذي يبدو أن القصتين السابقتين ونظائريهما من «تكاذيب الأعراب» هي جنس أدبي نسيه النقد القديم، وغفل عنه النقد التراثي في حدود علمي. وهي جنس أدبي لأنها: أولا: تقوم على الخيال المبدع، وثانيا: تعتمد لغة إنشائية، وثالثا: تؤدي وظيفة نفسية تتمثل في الحكاية الأولى بقهر الخوف وتبديد الظلمة. وفي الحكاية الثانية بقهر الطريدة وتمكين الإنسان من الحيوان. وأخيرا ممارسة الإنسان للسيادة على الكون الجامد والكون الحي من حوله.

واني أرى إضافة لما رآه الغدامي في بحثه الممتاز، والمشار إليه منذ قليل، أن بذورا من بذور أدب الخيال العلمي موجودة في الكذبتين السابقتين، فأنجياب الظلمة الذي حققه الفارس الأول في الأكذوبة الأولى يجسد حلم الإنسان في الغلبة على العتمة، وهو حلم تحقق باختراع الكهرباء في القرن العشرين، وفرس ذلك الفارس كان صنوا (أو حلما

وإذا كانت تلك الكتب تحتوي في ثناياها بعض القصص المنبثقة من منطق تخيلي، فإن كتباً أخرى ألفت لغرض السمر وحده، ويشير ابن النديم إلى كتاب سمر وصلنا من القرن الثاني ألفه لقيط المحاربي المتوفى سنة (١٩٠هـ) (الفهرست ص ١٠٦). ويبدو أن كتب الأسمار، التي لا بد أن تحوي قصصاً تنتمي إلى أفق الفن ومحراب الأدب، قد تكاثرت فيما بعد حتى إن المؤرخ حمزة الأصفهاني، المتوفى في أواسط القرن الرابع الهجري، قال: إنه كان في عصره من كتب السمر التي تتداولها الأيدي ما يقرب من ٧٠ كتاباً (نظر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، لآدم متز ١/٤٦٩). والراجح أن بعض تلك الكتب يعود إلى زمن الأمويين، ولكنه فقد ولم يصل إلينا. ويستبدل الرجحان باليقين حين نطالع ما حوته مكتبة محمد بن الحسين الذي كان بمدينة الحديثة والمعروف بابن أبي بكرة، وهو رجل جماعة للكتب، وقد رأى خزانة كتبه محمد بن إسحق (١٥١هـ) فقال عنها: إنها قمطر كبير فيه نحو ثلاثمئة رطل جلود فلجان، وصكاك وقرطاس مصر، وورق صيني وورق تهامي، وجلود آدم وورق خراساني، وفيها تعليقات عن العرب وقصائد مفردات من أشعارهم، وشيء من النحو والحكايات والأخبار والأساطير والأسمار والأنساب وغير ذلك من علوم العرب وغيرهم. (الفهرست، ص ٤٦). فالتأليف في الحكايات والأخبار والأساطير والأسمار وجد منذ زمن الأمويين، وشكل ظاهرة أدبية جديدة بالدرس والتحليل.

وسوف نتوقف عند ثلاثة نماذج من تلك القصص، ونقرؤها بعين ناقدة، لتقديم صورة واضحة عن طبيعتها، وعن هواجس كتابها، وملابساتها، ومزاياها.

١- في كتاب (المقاصد السنية في الأحاديث الإلهية، ص ١٥٤) وردت القصة الخيالية التالية التي رواها رجل عاش زمن الأمويين ومات سنة (١٢٦هـ) وهو عمرو بن دينار، تقول القصة المعنية: «روي عن عمرو بن دينار قال: كان رجل من أهل المدينة له أخت في ناحية المدينة، فاشتكت، فكان يأتيها يعودها، ثم ماتت، فجهزها، ثم حملها إلى قبرها، فلما دفنت ورجع إلى أهله، ذكر أنه نسي كيساً كان معه داخل القبر، فاستعان برجل من أصحابه، فأتيا القبر، فنبشاه فوجدا الكيس، فقال للرجل تنح حتى أنظر علي أي حال أختي، فرفع بعض ما على اللحد، فإذا القبر يشتعل ناراً، فتركه وسوى القبر كما كان ورجع إلى أمه، فقال: بالله ما أخبرتني ما كانت عليه أختي؟ فبكت وقالت: ما سؤالك عن أختك وقد هلك وانتقلت إلى رحمة الله تعالى؟ فقال بالله لتخبريني. فقالت: يا ولدي، كانت أختك تؤخر الصلوات، ولا تصلي بطهارة، وفي أول الليل تأتي أبواب الجيران، فتلقم أذنهم أبوابهم، فتسمع ما يتحدثون، وتنم به بالنهار. فبكي، وأخبر أمه بما عاين من قبرها، فبكت».

وهذه القصة يمتزج فيها المعقول بغير المعقول، فمرض الأخت وغيادتها وموتها ودفنها كلها من المعقولات، أما اشتعال النار في قبرها، فهذا من صنع الخيال، ومن أفق الفن. وقد جيء به لغرض وعظي، يتكشف من خلال معرفة أفعال البنت المنكرة التي لا يقرها الشرع، ولا العرف الاجتماعي المحمود، فهي تؤخر الصلوات ولا تصلي بطهارة، ثم تتجسس على الجيران، وتنم بما تسمع، فتوقع الشر والخصام بين الناس. وهذا يفسر سبب اشتعال قبرها بالنار... وهو يمثل عقوبة لها على ما كانت تفعله في حياتها من استهتار بالدين وبالخلق. وعليه فهذه قصة ما زالت تأخذ من قصص الوعظ بطرف، وتأخذ من قصص الخيال بطرف آخر. وهي تتمتع بسندها، مثلها مثل الأخبار التي كانت تروى بأسانيدها، في كتب الأدب وتراجم الرجال.

٢- ومن قصص الأحلام الغريبة ذات البعد العجائبي، قصة تحكي حلماً لأم الشاعر الأموي جرير بن الخطفي، تقول القصة: حلمت أم جرير، وهي حامل بجرير، كأنها ولدت حبلاً من شعر أسود، فلما سقط منها،

ولكن الأمر لم يبق على هذا النحو، فمع مرور الزمن، راح بعض القاصين يروون أحاديث مختلفة، ويصنعون أكاذيب، ويشيعون أوهاما، ما أنزل الله بها من سلطان، لذا وقف الفقهاء والسلاطين ضد القصاصين. وكان ممن ذمهم وحذر من جهودهم ومروياتهم ابن قتيبة في كتابه «تأويل مختلف الحديث»، والمقدسي في «البدء والتاريخ»، والغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين»، وابن الجوزي في كتابه «القصاص والمذكرين»، والسيوطي في كتابه «تخدير الخواص من أكاذيب القصاص» وآخرون كثيرون.

وفي كتاب السيوطي المشار إليه ورد الخبر التالي الذي نقله السيوطي عن الخطيب البغدادي بسنده، «قال: كنت بالأهواز فسمعت شيخا يقص فقال: لما زوّج النبي عليا فاطمة، أمر الله شجرة الطوبى أن تنثر اللؤلؤ الرطب، فتهداه أهل الجنة بينهم في الأطباق. فقلت له: يا شيخ، هذا كذب على رسول الله. فقال ويحك، اسكت حدثني الناس. فقلت: من حدثك؟ قال: حدثني يمان البحيري عن حفص التستري عن وكيع بن الجراح عن عبد الله بن مسعود عن الأعمش عن عطاء عن ابن عباس. والقاص هنا يسوق في سنده مجهولين، هما يمان البحيري وحفص التستري. وهما رجلان ليس لهما ترجمة في كتب الرجال. (انظر تخدير الخواص، للسيوطي ص ٢٠٥ وتعليق السيد محمد الصباغ على هذا الخبر في مقدمته لكتاب ابن الجوزي القصاص والمذكرين).

وكرهت القصص فيما بعد لأسباب مختلفة أهمها: ميل القوم إلى الإتيان، أكثر من ميلهم إلى الابتداء، ولأنها قد تشغل عن قراءة القرآن في نظر بعض الفقهاء، ولأنها قد تفسد قلوب العوام وتحرفهم عن الحق والورع وتعاليم الدين. ولأن القصاص قد يعثون بالأحاديث الشريفة فيحرفونها، أو يتزبدون فيها، أو حتى يختلقوها. وعليه فثمة خطر محقق في أن تصبح البدع سنة، والسنة بدعة، وأن تمتزج الأكاذيب بنصوص الدين الثابتة. (انظر مقدمة محمد الصباغ لكتاب القصاص والمذكرين).

ولا شك في أن هذه الخشية تعد قضية فنية ونقدية كثر الجدل حولها، فمن الناس من أنكر الكذب في الفن، ومنهم من قال: «أعذب الشعر أكذبه». كما وجد من قال عن الشعر، وهو أحد تجليات الأدب، مثله مثل القصة: «الشعر بمعزل عن الدين». وهذا يسلمنا إلى الأفق الثاني في بحثنا هذا، وهو أفق القص المنتمي إلى عالم الخيال ودنيا الأدب.

وجدنا في زماننا من يتصدى لدراسة بعض القصص القصيرة المبتكرة القائمة على التخيل والابتداء دون حرج أو وجل. فالأسطورة والخرافة وقصص الحيوان والأحلام وتكاذيب الأعراب، راحت تحتل، بوصفها سرديات إبداعية لا تكتثر بحقائق التاريخ، أو بمعايير الدين ووازعاته، راحت تحتل مكانها اللائق في ميدان النقد الأدبي، وتعرض على معايير مختلفة عن المعايير التي ورثناها عن الأسلاف. وأمثلة على تلك الدراسات بجهود كل من الباحثين سامي سويدان، وفهد عكام، وعبد الله إبراهيم، وسعيد يقطين، وعبد الفتاح كليطو، ومحمد عيد الخطراوي. ومصادر تلك القصص كثيرة، منها بعض كتب الأدب، مثل كتب الجاحظ المختلفة، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والكامل للمبرد، والعقد الفريد لابن عبد ربه ونثر الدر للأبي وغيرها، وكذلك الكتب التي تناولت المتصوفة وأباحت لنفسها سرد قصص تتصل بالخوارق حول كراماتهم ومكانتهم مثل كتاب «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» لأبي نعيم الأصفهاني، وكتب الأمثال، وكتاب «المقاصد السنية في الأحاديث الإلهية» لعلي بن بلبان المقدسي.. الخ. وقد خصص ابن النديم الفن الأول من المقالة الثامنة في كتابه «الفهرست» لأخبار المسامرين والخرفين وأسماء الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات، وهذا دليل على كثرتها وشيوعها. (الفهرست، ط تجديد، ص ٣٦٣).

المعارك: « قال حميد مسلم: وكان فينا قصاص ثلاثة رفاعه بن شداد البجلي، وصحير بن حذيفة بن هلال بن مالك المري، وأبو الجويرية العبدى، فكان رفاعه يقص ويحضض الناس في الميمنة لا يبرحها، وجرح أبو الجويرية اليوم الثاني في أول النهار فلزم الرحال. وكان صحير ليلته كلها يدور فينا ويقول: ابشروا عباد الله بكرامة الله وبرضوانه، فحق والله لمن ليس بينه وبين لقاء الأحبة ودخول الجنة والراحة من أبرام الدنيا وأذاها إلا فراق هذه النفس الأمارة بالسوء، أن يكون بفراقها سخيا، وبلقاء ربه مسرورا. فمكثنا كذلك حتى أصبحنا وأصبح ابن نمير وأدهم بن محرز الباهلي في نحو عشرة آلاف، فخرجوا إلينا، فاقتتلنا اليوم الثالث يوم الجمعة قتالا شديدا إلى ارتفاع الضحى، ثم إن أهل الشام كثروا وتعطفوا علينا من كل جانب... الخ. » (تاريخ الطبري ٥/ ٥٩٨).

وهكذا يبدو لنا أن القص في العصر الأموي لم يكن يتم في المساجد فقط، بل في ساحات الوغى أيضا. وإذا كان في البيئة الأولى يستهدف الوعظ والإرشاد، فإنه في البيئة الثانية كان يرمي إلى تهديد الناس بالحياة الدنيا، وحضهم على الإقدام والقتال ببسالة لتحقيق الظفر، وهزيمة الأعداء.

ولكن هناك بيئة ثالثة كان يتم فيها القص، وهي البيوت والحارات والأزقة. وهي بيئة مختلفة عن البيئتين السابقتين، إذ لا رقابة صارمة عليها، وفيها تحول القص من أن يكون خدمة لغرض ديني، إلى أن يصبح عملا يتكسب به القاصون، مثله مثل الشعر في بعض أغراضه. وهذا اللون من القص هو الذي أنكره الفقهاء، أمثال المقدسي وغيره. ومن أعلام أولئك القاصين: زرار بن أوفى الذي كان يقص في داره في البصرة (حلية الأولياء ج ٢ ص ٢٥٩)، و كردوس بن قيس الذي وصف بأن قاص العامة في الكوفة (كتاب القصص والمذكرين، ص ١٥).

وفي وسعنا أن نحدث أن قصصا لا ترضى عنها السلطات الدينية كانت تروى في تلك البيئات، وهذا ما يفسر مطاردة المحتسب لهؤلاء القصص الذين انتشروا في المدن والأمصار، والذين كان جمهورهم طلاب سمر وترفيه، لا طلاب موعظة وعبرة. إنهم جمهور العامة الذين وصفهم المقدسي بقوله: « إن الحديث عن جمل طار أشهى إليهم من الحديث عن جمل سار، ورؤيا مرية أثر عندهم من رواية مروية » (البدء والتاريخ ١/ ٤). وهذا الوصف للمروي لهم يشير بوضوح إلى طبيعة المروي، فالمروي هنا ليس قصصا للعبارة فقط، أساسه السند والتحقيق والتدقيق، وعماده الرواية الصحيحة الدقيقة التي تروم قول الحقيقة، بل هو إنتاج إبداعى نصيبه من الخيال واسع وكبير، وحظه من التعجب والطرفة قوي وعميق. وربما كانت قصص الحيوان، وقصص الأحلام، وتكاذيب الأعراب، وغرائب الأحداث، هي المستأثرة بتلك المبدعات القصصية. وهو ما ينتمي إلى الأفق الآخر من الإبداع القصصي في زمن الأمويين، بوصفه فنا، ليست الحقيقة التاريخية مقصده، بل التعبير عن هواجس الإنسان وأحلامه، همه ومراده. وسنولي بعضا منه عنايتنا بعد قليل.

والثابت أن ظاهرة القص قد استحكمت، وكثر أعلامها وروادها، حتى إن ابن عون روى ما يلي: « أدركت مسجد الكوفة، وما فيه حلقة تنسب إلى الفقه إلا واحدة تنسب إلى مسلم بن يسار، وسائر المسجد قصاص » (كتاب القصص والمذكرين، ص ١٨).

ولن تستكمل الصورة، التي نرسم إطارها هنا، دون أن نشير إلى أن هذه الظاهرة التي ندرسها قد اعترها من التطور، ومن الانحراف عن مراميها، شيء كثير، فالقاص الذي كان همه نقل أخبار الماضين لتكون عبرة لمعتبر، وعظة لمزدرج، لا تثريب عليه. وهو ما صنعه عبید بن شریة الجرهمي عند معاوية بن أبي سفيان. وكذلك من كان يذكر بالجنة ويخوف من النار ويصدق النية والقول ويخشى الكذب ويهجر الوضع والتزوير، كان مرحبا به ومفسحا له. وهي حالة القاص الذي امتحنه علي بن أبي طالب، ومرت الإشارة إليه من قبل.

خرارة، في أرض خوارة، إذا استودعت أدت، وإذا استجلبتها درت وأفعمت. تعول ولا تعال. (معجم الأدباء، تخ عباس ٤: ١٥٨٢). وواضح أن السجع كان شائعاً في أقوال ابن شرية، كما كان شائعاً أيضاً في بعض النصوص التي ورثناها عن وهب بن منبه، في كتابه «التيجان وملوك حمير».

وقد أكد اقتران القص بالسجع الجاحظ في حديثه عن القصاص الفضل بن عيسى الرقاشي (١٤٠ هـ) حين وصفه بقوله «كان من أخطب الناس متعلماً قاصاً مجيداً سجعاً» (البيان والتبيين، تخ هارون ١/ ٢٩٠). ويبدو أن ابن شرية الجرهمي كان حلقة في سلسلة من القصاصين الذين راحوا ينتشرون في الأمصار الإسلامية، فظهروا في الكوفة والبصرة ومكة والمدينة والشام ومصر. وذكر الجاحظ عدداً منهم، أمثال: عبيد بن عمر الليثي (٦٨ هـ) وهو قاضي مكة. وإبراهيم التيمي (٩٢ هـ) ومطرف بن عبدالله الشخير (٩٥ هـ) وهو قاص البصرة. ومن هذيل مسلم بن جندب (١٠٦ هـ) وهو قاص مسجد النبي في المدينة. ومثله كان الأسود بن سريع، وعمرو بن دينار (١٢٦ هـ)، والحسن وسعيد ابني أبي الحسن (١١٠ هـ). وكان جعفر بن الحسن أول من اتخذ في مسجد البصرة حلقة وأقرأ القرآن. وقص عبدالله بن عرادة في مسجد بني شيبان. وفي مصر قص عبد الرحمن بن حجيبة (٨٣ هـ) (انظر البيان والتبيين ١/ ٣٦٧). واستمر القص إلى ما بعد زمن الأمويين، فقص أبو بكر الهذلي (١٦٧ هـ) الذي كان عالماً بالأخبار والآثار، وفاخر أهل الكوفة، فقال: «ولنا الساج والعاج، والدياج والخراج، والنهر العجاج...». ومرة أخرى استطاع السجع بوضوح في أقوال القصاص والواعظين والمفاخرين.

وصنع عبدالله إبراهيم في كتابه «السردية العربية» مسرداً بأسماء القصاص في القرنين الأول والثاني، فذكر منهم خمسة وعشرين قاصاً، من بينهم ممن لم نذكر من قبل: وهب بن منبه والحسن البصري وكعب الأحبار ومعاوية الكندي وأبو إسماعيل الحضرمي وعبدالله بن رواحة وعبيد بن عمير ويزيد الرقاشي وصالح المري... وذكر أن سمات هؤلاء تنحصر في كون الواحد منهم حافظاً ثبناً في الحديث وفقياً عالماً وقاضياً مفسراً وورعاً وزاهداً. (السردية العربية، ص ٥٦-٥٧). والذين ذكرهم عبدالله إبراهيم في كتابه المشار إليه، لم يكونوا كل القصاصين في القرنين الأول والثاني كما سنرى.

ولما كانت مهمة هؤلاء ذات تأثير كبير في نفوس الناس، فقد حضر مجالسهم بعض الخلفاء، أمثال عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١ هـ). وحرص بعضهم على صفات معينة تتوفر في كل من يشغل هذه المهمة، فقد روي أن علي بن أبي طالب كان يراقب القصاص ويتحقق من كفاءتهم العلمية، ومروماً بقاص في الكوفة فقال له: «أيها القاص أتقص ونحن قريبو عهد برسول الله؟ لأسألك فإن أجبتني، وإلا خفقتك بهذه الدرة، ما ثبات الدين وزواله؟ قال: أما ثبات الدين فالورع، وأما زواله فالطمع. قال: أحسنت، فمثلك يقص». (كتاب القصاص والمذكرين، لابن الجوزي ص ٢٥). ومهمة القص لم يختص بها رجل واحد فقط، بل وجد رجال جمعوا بين القص والقضاء، وقد دمج بعض الخلفاء الأمويين القص والقضاء معاً، وعين للقص والقضاء سليم بن عمر التجيبي في السنة (٤٠ هـ)، وكان أول من جمعت له هاتان المهمتان، إلى أن عزل في السنة (٦٠ هـ).

ويبدو أن المساجد لم تكن البيئة الوحيدة لأولئك القصاصين، ولم يكن الوعظ والإرشاد غرضهم الوحيد أيضاً، فقد وجد قاصون يقصون في المعارك الحربية، ومن هؤلاء أبو سفيان بن حرب الذي كان يقص في اليرموك ويقول: «الله، الله... إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام. الله، إن هذا يوم من أيامك، اللهم انزل نصرك على عبادك». ومهمة هذا القاص وأشباهه كانت التحريض والتوثيب والتذكير بالآخرة المرتجاة. وهذه المهمة التي رأيناها في العصر الراشدي قد استمرت في العصر الأموي، فقد ذكر الطبري في أحداث العام (٦٥ هـ) أنه في إحدى

في القرن الثاني، وخاصة بعد أن ازداد احتكاك العرب بالأجانب، وأخذت حركة الترجمة بالظهور والنمو والتطور، على يدي الأمير خالد بن يزيد بن معاوية (٩٠ هـ / ٧٠٨ م) الذي أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كان ينزل بمصر، وقد تفصح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي (الأعلام، للزركلي ٣٠٠/٢).

والسؤال الآن ما موقف بني أمية من هذه السرديات بأشكالها المختلفة ؟ والجواب أنهم شجعوا على نوع منها، ونهوا عن بعض آخر. فهم شجعوا على القصص التي ترمي إلى الوعظ والإرشاد، وتعنى بالدين وسيرة الرسول ومناقب الصحابة. وتتصل بالأخلاق والقيم التي رغبوا في سيادتها وشيوعها. ونهوا عن مرويات القصص الذين انصرفوا عن الجادة، وراحوا يتلاعبون في عقول العامة فيفسدونها: وفي هذا الصدد يقول المقدسي مهاجماً أرباب القلائس وأصحاب المجالس الذين طلبهم العلم لا لله، ولا لأنفسهم، ولكن للتصدر والتقدم، فهؤلاء: « يأخذونه من غير مظانه ويترشحون له... مستحلبين أفئدة العامة بإطراء مذهبهم مفسدين عليهم أذهانهم بما يقصون من غرائب العجائب التي رواها مستأكلة القصاص عن أحداث في العقل مردودة، وأعجوبة عن الفهم محجوبة، حتى شحنا صدورهم بترهات الأباطيل وضيعوا نفوسهم بالأسمار والأساطير » (البدء والتاريخ ٣/١).

ولوعدنا إلى اللون الأول من القصص المرغوب به من السلطة الحاكمة، وجدناه يتداول في مكان مقدس عند المسلمين وهو المسجد. وذكر فؤاد سزكين أن قصص المغازي ومناقب الصحابة صارت تقرأ في الجامع الأموي بدمشق بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) (تاريخ التراث العربي مج ١ ج ١ ص ٧٣).

وساعد وجود قص يومى في المساجد على رواج هذا الجانب بين الناس. ولكن بدايات القص وتشجيع أولي الأمر عليه كان أقدم من عهد عمر بن عبد العزيز. فقد استمع الرسول إلى تميم الداري الذي قص عليه حديث خرافة (انظر الفاخر في الأمثال، ص ١٧١). وهي القصة التي يمكن أن تدشن بداية اهتمام العرب بالقصة الخرافية، وقد منحها الرسول ﷺ شرعية الدخول في باب السماع والاستمتاع، وهي تتحدث عن الجن، وتدخلها في حيوات الناس آنذاك... وكذلك استمع الرسول إلى قصة الجساسة، وهي دابة مغطاة بالشعر، وقد وردت القصة في شرح صحيح مسلم (١٨ / ٧٨ - ٨٣).

وثمة خلافاً في ريادة التشجيع على القص بعد الرسول ﷺ، فثمة من يرى أن الخلفاء الراشدين كلهم شجعوا على القص. وهناك من يرى أن أول خليفة أموي - معاوية بن أبي سفيان هو الرائد في هذا الباب، فقد استدعى عبيد بن شربة من اليمن ليحدثه عن أخبار الماضين، ويقص له حكايات الأولين. و جيء بعبيد، وسمع له معاوية شفاها، وأمر بأن تدون أحاديثه، فكان لنا كتاب « أخبار عبيد بن شربة الجرهمي ». وإذا كنا نشك في كون كل ما جاء في كتاب عبيد هو من صنعه بالذات، فإن واقعة استماع معاوية له، هي صحيحة في الغالب الأعم.

وربما كان من الملائم أن نعرف بعضاً مما كان يدور بين الرجلين. وقد أثبت ياقوت الحموي في كتابه (معجم الأدباء، تح إحسان عباس ١٥٨٢/٤) نصاً نقله عن ابن عساكر في تاريخه، يقدم لنا فكرة عما كان يدور بين الرجلين، وعن طريقة عبيد في الحديث، فهو بعد أن يذكر أن عبيدا عاش ثلاثمائة سنة، أو مئتين وعشرين سنة، يروي أن معاوية قال لعبيد: « ما أدركت ؟ قال أدركت يوماً في أثر يوم، وليلة في أثر ليلة، متشابها كتشابه الحذف، يحدوان يقوم في ديار قوم، يكدحون ما يببدهم، ولا يعتبرون بما مضى منهم، حيهم يتلف، ومولودهم يخلف، في دهر يصرف، أيامه تقلب بأهلها كتقلبها دهرها، بينا أخوها في الرخاء، إذ صار في البلاء... وقال معاوية: أخبرني عن المال أيّه أحسن في عينك ؟ قال: أحسن المال في عيني وأنفعه غناء، وأقله عناء، وأجداه على العامة، عين

والجنة وكيف علق سيفه بالثريا مصلتا، وأنه أخذ الشمس والقمر وتبعته النجوم والدراري ونزل بهم إلى الأرض، وكيف نزل على القصر ودخله، فرأى فيه أعاجيب ثم سار حتى بلغ إلى فج عظيم، ثم لقيته جبال شم منيعة بها شعاب عظيمة، ثم مضى حتى بلغ أرض يأجوج ومأجوج، فقاتلهم فتغلب عليهم... الخ (نوري حمودي القيسي: أولية القص في الأدب العربي، مجلة كلية الآداب، بغداد مج ٣٨ ص ١٥-١٦). وواضح هنا أن للخيال نصيبا كبيرا في سرديات وهب بن منبه السابقة.

وكذلك طالعنا في زماننا هذا كتب تناولت القصص العربية في الجاهلية والإسلام، مثل كتاب «قصص العرب» وهو كتاب يقع في أربعة أجزاء، وصدر منذ زمن بعيد، وقد صنفه البجاوي وصحبه، ومصادره معروفة للباحثين. وكتاب «قصص العرب في العصور الجاهلية والإسلامي» ويقع في أربعة أجزاء. وقد أعده إبراهيم شمس الدين، وطبع في بيروت عام ٢٠٠٢. وضم ألوانا متعددة من القصص صنفها الباحث كما يلي، في الجزء الأول: قصص محاسن الأخلاق ومساوئها، وقصص الكرم والكرماء والبخل والبخلاء والغنى والأغنياء والفقير والفقراء والطعام وآدابه والضيافة وآداب المضيف والضيفين. وفي الجزء الثاني: قصص العقلاء والأذكىاء والحمقى والمغفلين والملوك والخلفاء والوزراء والحجاب والقضاة والولاة والقصاص والعبيد والإماء والخدم. وقصص الفصحاء والبلغاء والخطباء والشعراء والكتاب. وقصص الحيل والخداع واليقظة والتبصر بالأمور. وفي الجزء الثالث: قصص المغنين والمغنيات ونساء العرب في الجاهلية والإسلام وأوابدهم وقصص الجن والشياطين، وشجعان العرب وفارسانهم. وفي الجزء الرابع: قصص الفخر والمفاخرة، وقصص عشاق العرب، وقصص الأمثال العربية، والأجوبة المسكتة. ومن مصادر هذا المصنف كتاب الأغاني والعقد الفريد ومجمع الأمثال وكتاب الأذكىاء والمستطرف وثمرات الأوراق.. الخ.

ولا شك أن هناك تداخلا بين هذه التصنيفات، ففي قصص الأمثال نجد قصصا تتصل بمحاسن الأخلاق وبالمغفلين وبالعقلاء والمجانين... الخ. ولم يبلغنا الباحث هنا بالفرق بين الأخبار والقصص، لأنه لم يضع معيارا فنيا للقصصا يحتكم إليه. وإنما كان همه الجمع والحشد، فبدا كحاطب في ليل، كما كان من سبقه في هذا الباب. ولم يقف، بصورة خاصة، وواعية، عند الجزئية العاشرة من الآداب التي ذكرها الحسن بن سهل، وأعني بها قصص السمر التي قامت على الخيال، واستهدفت التعجيب والخلب والإمتاع... ولم تقم على الحقيقة، أو تقتصر على الوعظ واستخلاص العبر.

والحقيقة أن مؤثرات أجنبية قد وجدت في القصص العربي، فقد روى المبرد في «الكامل» بعد أن ذكر إحدى تكاذيب الأعراب: أن العرب تسمع مثل هذا من الفرس فتمضي في إتباع سمنته ونظائره (الكامل، للمبرد ٧٣١/ ٢). وكذلك رصد إحسان عباس في كتابه «ملاحم يونانية في الأدب العربي» قصصا عربية ذات منزع إيسوبي، ومنها قصة الرجل الذي ابتلع عظما (ملاحم يونانية، ص ٧٩) وقصة المثل القائل «أكلت يوم أكل الثور الأبيض». وهي التي تمثل بها ذات يوم علي بن أبي طالب، وقصة المثل الذي يحكي حكاية الحية والرجل الذي ضربها بسيفه، ثم طلب معاودة صداقتها، فقالت: «كيف أعود لك وهذا أثر فأسك». وهي مما ورد في شعر النابغة الذبياني. ويرى عباس أيضا أن قصة القبرة التي ساقها ابن عبد ربه في العقد الفريد ذات أرومة يونانية (ملاحم يونانية ص ٧٨). أما الأصول الهندية للقصص العربية، فهي ماثلة في معارضات القصص العرب لبعض قصص كتاب «كليلة ودمنة» ذي الأصول الهندية، كما فعل أبان اللاحق، وسهل بن هارون في كتابه «ثعلا وغفراء». وعلى الرغم من أن المصادر الأموية لا تؤيد هذا التأثير بوضوح، ففي وسعنا أن نجد في مصادر القرنين الثالث والرابع مصداقا على ما يجري

خاصة عند ألوان من مقطعات السمر في آخر بحثنا . أما الآن فنمضي لتتعرف على الشق الأول، وأعني به آثار الأمويين القصصية بإشكالاتها ومصادرها وبيئاتها وأعلامها ومزاياها .

وأول تلك الإشكالات أن السرديات العربية، سواء كانت قبل الأمويين زمنياً أم بعد زمانهم بقليل، قد تحدرت من أصول شفوية غالباً . وهذا يعني غياب الكتابة التي توثق وتدقق، إذ ليس لدينا مخطوط عربي يرقى زمن نسخته إلى العصر الأموي باستثناء بعض أوراق البردي . وإذا استثنينا القرآن الكريم من الإشارة السابقة، عرفنا أن أقدم مخطوط عربي مكتوب على الكاغد هو «آداب الفلاسفة» لحنين بن اسحق . ومنه نسخة خطية في جامعة طهران تاريخها ٢٤٩ هـ / ٨٦٣ م (انظر أقدم المخطوطات العربية، لكوركيس عواد، ص ٧٧) . وهذا ويعني أن باب السرد يبقى مفتوحاً للزيادة والنقصان والتصرف، والنزوع إلى التحريف والتدليس والتبديل .

وليس الاختلاف ما بين الشفاهية والكتابية في الآثار القصصية هو الإشكال الوحيد، بل إن الزمن أيضاً يعد إشكالاً آخر، فنحن في حرج شديد إذا قصرنا اهتمامنا على قصص ابتدعها رجال عاشوا في زمن بني أمية، ومرد ذلك أن القصص الموروثة من الجاهلية والعصر الراشدي قد كانت مدار اهتمام بني أمية، وأثرت في وجدانهم، ودخلت في تكوين حيوات الناس في زمانهم، كما صارت جزءاً لا يتجزأ من الآثار الكتابية التي ورثناها عنهم أيضاً، فعلى سبيل المثال، إن كتب الأمثال التي ألفت زمن الأمويين على أيدي صحرار العبدي، وعبيد شربة الجرهمي، ووهب بن منبه قد حوت حكايات موروثة من الجاهلية . والمؤكد أن بعض السرديات العربية، التي أدرجت في مصنفات لاحقة في القرون التالية، قد حوت مبتدعات أموية أو عرفها الأمويون، وشكلت جزءاً من ثقافتهم، التي تعد القصة واحدة من أركانها، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً .

وإذا ما سعى الباحث لمعرفة مصادر الأخبار والحكايات والقصص، ففي وسعه أن يعد عشرات، بل مئات الكتب التي حفلت بألوان السرد العربي، منها على سبيل المثال القرآن الكريم الحافل بقصص الأنبياء الغابرين، وكتب الأمثال العربية، وكتب الأدب، وشروح الشعر القديم، وتفسير القرآن، وكتب المغازي، وكتب السيرة، وخاصة تلك التي انتمى رجالها إلى العصر الذي نحن فيه، أمثال عروة بن الزبير (٩٢ هـ) وأبان بن عثمان بن عفان (١٠٥ هـ) وعاصم بن قتادة (١٢٠ هـ) وشرحبيل بن سعد (١٢٣ هـ) والزهري (١٢٤ هـ) ... الخ .

ولا ريب في أن كتب السيرة النبوية التي خلفها أولئك الرجال تنتمي إلى فضاء قصصي امتزج فيه التاريخ بالقصة، والقصة بالتاريخ . وقد اعتراها نفس ملحمة اختلطت فيه الحقيقة بالأسطورة، والممكن بالمستحيل، والطبيعي بالخارق .

وعلى الرغم من أن الفعالية الخيالية قد تداخلت مع سرد الوقائع التاريخية الصحيحة، في كتب السيرة، فإن تلك السرود لا يمكن أن ترقى لتكون آثاراً قصصية أو روائية متكاملة، اجتهد مؤلفوها، بعون من قدراتهم التصويرية، لبناء شخصيات خيالية، أو لصنع فضاء روائي، أو لمعالجة مشكلات الزمان والمكان، والوقوف عند قضايا الإنسان، وتحليل نوازعه وعواطفه، والتعبير عما لديه من أحلام وتطلعات، كما هو الشأن في الروايات المعاصرة .

وينطبق ما تقدم على كتابين هامين وصل إلينا من العصر الأموي، أولهما: أخبار عبيد بن شربة الجرهمي، وهو كتاب منسوب إلى هذا المؤلف، ولا نعرف مدى ما داخله من زيادة أو نقصان عن أصوله المروية على معاوية بن أبي سفيان، ويرجح أنه منحول عليه . وثانيهما: كتاب التيجان وملوك حمير المنسوب إلى وهب بن منبه . وقد وردت فيه قصص وحكايات، منها مثلاً قصة المغارة التي كان فيها شداد بن عاد، وقصة لقمان بن عاد الذي عاش ألفي سنة، ونسوره السبعة، وآخرها نسريدعى لُبد، وقد ذكر في شعر النابغة، وقصة الصعب ذي القرنين الذي قص رؤياه لجهنم

الإرث القصصي للعصر الأموي

د. عادل الفريجات

جامعة دمشق

السرد، أو القص، قديم قدم وعي الإنسان لذاته، وإدراكه بأن هناك آخر يصغي إليه، إذ ينقل له أحداثا مرت به، أو تخيلها للتعبير عن هواجسه وأحلامه. ومنذ عهد السومريين عرف الإنسان القصة، فلمحة جلعامش هي قصة تروى، بسماتها القديمة، وشروط زمانها. وهي أثر فني موغل في القدم، له سماته ودلالاته ومراميها البعيدة... وقد ورث العرب عن أسلافهم من الشعوب، ساميين وغير ساميين، وبحكم الاتصال والتجاور والعلاقات المختلفة، القصة بأنواعها وألوانها ومستوياتها المختلفة. وحين جاء الإسلام استمعوا إلى الآية الكريمة القائلة: «نحن نقص عليك أحسن القصص» (سورة يوسف/آية ٣). ولاحظ بعض الباحثين أن كلمة القص ومشتقاتها وردت نحوًا من خمس وعشرين مرة في القرآن الكريم (نوري حمودي القيسي: أولية القص في الأدب العربي، مجلة كلية الآداب، بغداد ١٩٩٠/ع ٣٨). فرسخ هذا بين ظهرائهم مشروعية القص وقيمتها الكبرى. وسنرى منذ البداية أن السرد القديم الذي ورثناه عن العصر الأموي في المشرق (٤١-١٣٢هـ) ينتمي إلى أفقين مختلفين كبيرين هما:

أ- أفق التاريخ، ورواية الأحداث بصورها المتعددة. ويندرج تحت هذا الأفق فن الخبر، وهو موضوع نهض بدراسته الباحث التونسي محمد القاضي، وطبع كتابه في تونس وبيروت ١٩٩٨، ناظرًا إلى الخبر بوصفه جزءًا من السردية العربية، وتتنازع مصطلحات أخرى تشتبك به، وهي: الحديث والقصة والحكاية والطرفة والنادرة (انظر: الخبر في الأدب العربي، للقاضي ص ٦).

ب- وأفق الفن وعالم الخيال ودنيا الأدب. ويندرج تحت هذا العنوان قصص الأحلام، وقصص الحيوان، وتكاذيب الأعراب مثلاً. وهي أقرب ما تكون إلى القصة القصيرة في زماننا، وقد نضجت شروطها واكتملت بنيانها. ومنذ القديم قال الحسن بن سهل (٢٣٦هـ) الآداب عشرة: ثلاثة شهرجانية، وثلاثة أنوشروانية، وثلاثة عربية، وواحدة أربت عليهن. فأما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصولج، وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية، وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس. وأما الواحدة التي أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس (زهر الآداب للحصري، تخ زكي مبارك ١/١٩٦). وسيكون لنا وقفة